الدعوة إلى تحديد النسل

جريمة قومية لا ضرورة اجتماعية

بقلم الكاتب الكبير الأستاذ عبد المجيد نافع

المحامي وعضو مجلس النواب

منذ عهد غير بعيد ، نبتت في أذهان بعض المشتغلين بمشاكل مصر الاجتماعية فكرة كانوا يتهامسون بها ويشفقون على أنفسهم من أن يجهروا بالدعوة إليها ، لما قد تصادفه من ازدراء العقلاء أو إثارة خواطر المستمسكين بفضائل الدين وفضائل المجتمع .

ولكنا لم نلبث أن رأينا هذه الفكرة الحائرة الخبية المترددة تطفر طفرا سريعا فتثب إلى صفحات المجلات وأعواد المنابر ، وتتخذ شكل مذهب اجتماعي يدعو إليه الدعاة في غير ما حذر ولا تبصر ، كما لو كان أمرا طبيعيا لا إثم في الأخذ به ولا حرج من دعوة الناس إليه .

تلك الفكرة هي فكرة " تحديد النسل " أي اللجوء إلى اصطناع الوسائل لمنع الحمل بغية التقليل من عدد المواليد بدعوى أن الثروة القومية المصرية لا تحتمل الزيادة المطردة في عدد السكان .

وأصحاب فكرة تحديد النسل يذهبون إلى أن هذا التحديد ضرورة اجتماعية في بلد كمصر لا يملك من الثروة الأهلية ما يكفي سكانه الحاليين ، فكيف به إذا زاد عددهم أو تضاعف على مر السنين ؟ وهم يؤيدون مذهبهم بكلام يشبه الصدق إذ يقولون إن نسبة عدد المواليد قد تجاوزت في مصر ٤٣ في الألف حين لم تبلغ في أرقى أمم الدنيا : بريطانيا العظمى والولايات المتحدة وألمانيا وإيطاليا وفرنسا سوى ١٤,٩ و ١٧ و ١٨,٨ و ٢٢,٩ و ١٤,٧ في الألف ، ويخرجون من هذه الموازنة بأنه يجب وضع حد لاطراد الزيادة معاكسة الطبيعة والحيلولة بين المرأة وبين أن تؤدي وظيفتها الرئيسية في الحياة .

ولكن أولئك المتعشقين للأرقام والاحصاءات لا يمدون أبصارهم إلى أرقام أخرى كفيلة بأن تردهم إلى الصواب ، وتبين لهم أنهم لا يقدرون المسائل إلا بعقل أعور يرى من الشيء ناحية ولا يرى غيرها من نواحيه .

صحيح إن نسبة المواليد في مصر قد بلغت ٤٣ في الألف . ولكن أليس صحيحا أيضا أن نسبة الوفيات تبلغ الآن ٢٥,٤ في الألف في حين أنها لا تعلو في بريطانيا العظمى على ١٢ ؟

وأول ما يقفز إلى الذهن فى المحنة العالمية الحاضرة أن دعاة تحديد النسل يغفلون الجانب العسكرى فى المسألة ، وهم يرون ، يعونهم التى فى رءوسهم ، كيف تجرفت الدعوة إلى السلام وباتت عصبة الأمم خيالا متلاشيا أو حلما من أحلام الماضى ، وكيف أن الأمم الكبيرة تسحق تحت أقدامها الأمم الصغيرة غير مترفقة ولا وانية .

إن عزة الدول ومنعتها لا تكون إلا بالعدد والعدة والقلوب العامرة بالايمان الوطنى . ولو أن أشياع تحديد النسل حققوا خيال تحديد التسليح لما سمع الوطنية الهتاف بدعوتهم ، ولو أصبح الانسان بغير ظفر ولا ناب لحق لهم أن يسقطوا من حسابهم الحرب كعامل من العوامل التى تخمق كل حركة للتحديد فى مهدها .

ويا سبحان الله ! أفلم ير أبطال التحديد كيف سقطت فرنسا جثة لا حراك بها أمام أول وثبة للعسكرية البروسية . وما قضى على أحفاد لويس الرابع عشر ، والثورة ، ونابليون ، حربيا واقتصاديا ، إلا شيوع الأنانية المتحجرة بينهم ، ورواج دعوة التحديد المحرمة بين صفوفهم .

كم غلت مراجل الغيظ فى صدور علماء فرنسا المخلصين فأرسلوا الصيحة عالية مدوية فى بنى قومهم محذرين ومنذرين بأن تناقص السكان عرض من أعراض انحطاط الشعب الفرنسى .

ولطالما أذن أولئك العلماء فى الناس أن نقص المواليد إن دل على شىء فإنما يدل على التخاذل أمام الخلق والتجديد ، والحين عن احتمال أعباء الحياة وتكاليفها .

بل لقد جهروا بأن ظاهرة تحديد النسل تدل أصرح الدلالة على خمود القلوب من القومية ، وإقفارها من الوطنية ، وتشبعها بعبادة الذات .

ما كان أصحاب دعوة تحديد النسل مجددين ، بل كانوا مقلدين ، ومقلدين لمصدر وحيهم " روبرت مالتس " ، ذلك الذى دعوه بحق شيخ المتشائمين ، وعلم كارليل على علمه سمت " العلم المشئوم " ووصفه جودين بأنه العبقرى الجهنمى الذى يخمد كل نزعة للرجاء فى النوع الإنسانى .

لقد كان الناس قبل "مالتس" يؤمنون بأن وفرة عدد السكان خير وبركة على الأمة ، وأن لا خوف من زيادتهم عن الحاجة فإن خيرات الدنيا وثمراتها كفيلة بسد حاجات الإنسانية .

فأقبل رأس المتطيرين ينظر إلى الدنيا بمنظار أسود ويشكك فى مستقبل الإنسانية ومستقبل العلم معا ، ويزعم أن عدد السكان فى كل أمة يمثل فى زيادته تصاعدية هندسية ، على حين أن الموارد تمثل تصاعدية حسابية ، ثم رتب على تلك المقدمة التعسفية ، نتيجة فاسدة ، ألا وهى أن عدد السكان يتضاعف كل خمسة وعشرين عاما ، وأن اليوم ليس ببعيد

حين تضيق موارد العالم عن إشباع بطون ساكنيه ، ثم أغرق الرجل فى التشاؤم فبارك الحروب والأمراض والأوبئة والطواعين وجميع الشرور التى تخفف من ضغط الموارد البشرية على الموارد الطبيعية .

وما ندرى كيف غفل شيخ المتشائمين عن أن قوة الإكثار فى حبة القمح والبطاطس ، وفى الدجاج وفى الأسماك ، وفى صيد البر والبحر ، بل وفى فصيلة الأبقار والأغنام ، تربى بما لا يقاس على قوة الإكثار فى بنى آدم .

فى عام ١٧٨٩ قدر لافوازييه إنتاج القمح فى فرنسا بـ ٧٣٤ هيكتولتر للهكتار الواحد من الأرض وفى السنين الأخيرة بلغ الناتج ١٧ هيكتولترا إلا قليلا . فاذا علمنا أن عدد سكان فرنسا لم يزد بنسبة تلك الزيادة أدركنا هول الجناية التى جنتها دعوة مالتس عليها .

وكان صاحب دعوة تحديد النسل معاصرا لحروب الثورة الفرنسية ، وحروب نابليون بين عامى ١٧٩١ — ١٨١٥ ، وشاهد بعينه آثار تلك الحروب التى حصدت من زهرة الشبيبة العربية عشرة ملايين نسمة . فما تراه كان يقول لو أنه شهد الحرب العظمى ، التى قضت فى فترة أربعة أعوام فقط على حياة ثمانية ملايين من الجنود ، ومثلهم من المدنيين . بل ماذا تراه كان يقول لو امتد به الزمن الى المجزرة البشرية التى تشهدها الانسانية اليوم ؟ أكبر الظن أنه كان يهيب بتلاميذه وأبواقه أن يكفوا عن النفخ فى دعوة تحديد النسل ، والاكتفاء بما تحصده النيران من المقاتلين وغير المقاتلين .

ولا نحسب أن مبعث التناحر زيادة السكان وقلة الموارد ، فالعالم يشكو أزمة الكثرة لا أزمة القلة . والتخمة الصناعية لا المجاعة القطنية ، والتخمة الغذائية لا الجوع ، هى التى حملت الأمريكان يوما على أن يضرموا النيران فى جزء من محصول قطنهم ، وساقت البرازيليين الى حرق جانب من بنهم . انما مبعث تنشيل الطبقات فى داخل الأمم سوء توزيع الثروة ، ومنشأ التناحر بين الشعوب الظلم فى توزيع خيرات العالم .

والآن كيف السبيل الى تحديد النسل أو ضبط النسل ؟ بالاكراه الأدبى كما يجيب شيخ المتشائمين وأنصاره من التابعين . وبعبارة أوضح وأصرح بالعزوبة وباستخدام الوسائل الصناعية بعد الزواج . فأما العزوبة فيفرضها على الفقراء وحدهم وجعل الزواج احتكارا للأغنياء ، يتبرع به أبطال التحديد كامتياز جديد يضاف الى امتيازاتهم العديدة . وأما عن الوسائل الصناعية فقد اجتمعت كلمة الأطباء فى كل بلاد العالم على أن العلم لم يصل بعد الى اكتشاف طريقة مرضية لضبط النسل .

ان دعاة تحديد النسل يدعون الأمم الى الانتحار القومى والى فوضى الأخلاق . وهل من نتيجة لدعوتهم إلا شيوع البغاء والزنا والخنا والاجهاض وهدم صرح الأسرة وكل أولئك مقدمات سيئة لهذه الأمة ؟ وهل نشهد فى ظل دعوتهم ، كما يشهد الغربيون اليوم ، إلا الفتاة الشمطاء والفتاة الوالدة ؟

لقد كانت قوة الحيوية تدفع الأمم الفتية إلى الإكثار من النسل . فهذه أمم اليونان والرومان والعرب كانت ترى أن التناسل فرض مقدس يؤديه الرجل والمرأة لوطنهما . وفى الأمم الناشئة الناهضة هى الحاجة إلى الأيدى التى تحقق الثروة القومية ، والرءوس التى تخلق المدنيات .

واليوم هى الأثرة التى تسوق الآباء والأمهات الى الهروب من الواجبات والاضطلاع بالمسئوليات فأما الآباء فيفرقون من تبعات تربية الأولاد وتعليمهم حتى يصبحوا مواطنين صالحين وجنودا للوطن . وأما الأمهات فيشفقن من آلام الحمل وأخطاره فيؤثرن السلامة على التضحية فى سبيل الوطن . وأما النساء المترجلات فقد أصخن بسمعهن الى دعاة أو أدعياء تحرير المرأة فزهدن فى الزواج و إنجاب الأولاد جميعا . وأما الخليعات من النساء فقد آثرن القد الأهيف ، والجسم الغض البض ، والوجه المشرق الوضاء على كل تفكير فى المصلحة العليا للدولة .

وساقت دعوة تحرير المرأة المرأة نفسها الى الاستعباد فى المعامل والمصانع والاسترقاق فى المتاجر والوظائف ، ومكانها الحق فى البيت لتكون زوجا صالحة وأما رءوما .

وصادفت الدعوة هوى فى أفئدة الاغنياء دون الفقراء ، فأضرب عن الزواج الكثيرون من القادرين عليه ، وأحجم عن الانتاج من تمكنهم وسائلهم من تربية الأولاد وتعليمهم . والآن فإن الأرقام فهى أبلغ من كل خطيب .

ففى جميع أمم الغرب وفى أمريكا وفى مصر قل الزواج وقل النسل بين الطبقات الغنية المترفة وزاد بين الطبقات الفقيرة المعدمة .

ولقد أجرى إحصاء فى عام ١٩١١ عن انجلترا وويلز لمعرفة خصوبة الزواج ، فقسم التقرير الأمة الى ثمانى طبقات ، ودل على أن نقص الوفيات بين أطفال الطبقات المثرية لم يعوض النقص الذى أحدثه انخفاض المواليد ، وأن هذه الطبقات لا تحتفظ بعددها النسبى بين الطبقات الأخرى بل هى فى تناقص نسبى مستمر .

وفى أمريكا ، لا بالنسبة للرجل وحده ، بل بالنسبة للمرأة ، دل الاحصاء على أن بعض المهن يلازمها العقم الاجتماعى ، فالكتاب ، ورجال الفن والموسيقى وأصحاب المرح ، يرجئون الزواج فإذا تزوجوا لم ينجبوا الا قليلا . فمن بين الموسيقيين تزوج ٣٦ فلم ينجبوا الا ٣٧ ولدا ولم ينجب مائة من كبار المؤلفين إلا ١٥٠ ولدا .

وفى مصر لا تنجب الطبقة الوسطى وهى عماد الأمة الا قليلا من الأولاد .

فإذا كانت هناك نتيجة لدعوة تحديد النسل فلعل شر نتائجها انقراض الطبقات الصالحة للنهوض بالامة .

ان الذى يرتسم فى أفق العالم اليوم هو تراخى العاطفة الدينية ، وتلاشى روح الوطنية ، وانحلال الأسر ، وكثرة الطلاق بصورة جعلت الزواج أشبه الأشياء بزواج المتعة .

وليس من نتيجة لإنقاص الأولاد الشرعيين الا زيادة عدد اللقطاء .

ولقد أوغل "مالتس" وأشياعه فى المادة فنسوا أو تناسوا ان السعادة تحقق بكوخ وقلب. وأن غريزة حفظ النوع أقوى من غريزة حفظ الذات ، بدليل أن كثيرا من الأنواع يهلك الذكر منها لا محالة بعد مباشرته عملية التلقيح ، فاذا كان التماس الحرية الكاذبة يعمى الناس عن واجباتهم حيال الجنس فليس لذلك من نتيجته إلا التدهور فالفناء .

يقولون إن العامل الاقتصادى يدفع إلى تحديد النسل. والذى يهدم هذه الدعوى أن دخل الفرد فى الولايات المتحدة عام ١٨٥٠ كان ٣٠٨ دولارات وفى عام ١٩١٠ بلغ ١٤٧٠ دولارا على حين أن عدد السكان زاد من ٢٣ مليونا إلى ٩٢ أى أن الدخل بلغ أربعة أضعاف فاكثر وعدد السكان لم يكد يبلغ أربعة أضعاف مع كثرة الهجرة .

لمعترض أن يقول : وأين نحن فى مصر من الثراء الطائل فى الولايات المتحدة ؟ والجواب أننا حين نستغل ، على خير صور الاستغلال ، زراعتنا وصناعتنا وتجارتنا ، وحين نستصلح الأراضى البور ونستغل ثروتنا المعدنية وجميع مرافقنا العامة ، ونستخلص مرافقنا من أيدى الأجانب ، حين ننجز كل أولئك يصح لنا أن نتكلم عن الموازنة بين عدد السكان وموارد الثروة القومية .

إننا حين نبدئ ونعيد ونملأ أسماع الفقراء بأن أسباب بؤسهم إنما هى الزواج المبكر وكثرة الأولاد ، وأن لا قوانين تسن ولا أنظمة توضع بمستطيعة أن تنقذهم من براثن الفقر ومخالب الفاقة ، إذا ظللنا نضرب على هذه النغمة المعجوجة لم نبلغ إلا غاية واحدة ألا وهى أن ينفض الأغنياء أيديهم من مصائر الفقراء وأن تجمد كل حركة للإصلاح فى البلاد .

إن المذهب الفردى قد دفن إلى غير بعث . وحل محله مذهب التضامن الاجتماعى الذى يجعل دينا فى عنق الدولة يجب أن توفيه ، بأن تربى أولاد الفقراء جميعا وتعلمهم وتدربهم على أن يشقوا طريقهم فى الحياة حتى يصبحوا للدولة قوة اقتصادية وقوة اجتماعية وقوة عسكرية.

يقول تقرير اللجنة الانجليزية القومية للمواليد الصادر فى سنة ١٩١٦ إنه لا ينهض دليل على أن سكان العالم يفوقون الموارد الطبيعية فيه ، بل لا بد لاستغلال الموارد من زيادة عدد السكان ، ولقد زاد إنتاج القمح فى الامبراطورية البريطانية ٧٥٪ فى الفترة بين ١٩٠١ — ١٩١١

وإذا لاحظنا أن فى استراليا اليوم يوجد ساكن واحد فى الكيلو متر المربع فى حين يوجد فى بعض جهات مديرية المنوفية ١٠٠٠ ساكن كان لنا أن نأمل فى توزيع عادل لخيرات العالم.

لقد أجرى فى بلجيكا تحقيق عن العائلات الكثيرة العدد فتبين أن الأغلبية العظمى فيها تتمتع بالسعادة وأن التى يخيم عليها الشقاء إنما هى العائلات التى يسود فيها من جانب الآباء التعطل والمرض ومعاقرة الخمور أى أن الاصلاح الاجتماعى يكفل رخاء الأسر جميعا .

ولقد تجلى أن ذوى الأولاد يقبلون على العمل ، وأنهم أقوياء الإرادة وأنهم يشعرون بالحياة شعورا كاملا على عكس العائلات التى ليس لها إلا ولد واحد .

وفى مصر فضلا عن العاطفة الدينية يرى الآباء أن الأولاد رأس مال لهم وتأمين ضد الشيخوخة .

ولعل من المهم أن نذكر أن زيادة عدد السكان تلازم الحكومات الصالحة فى مصر . وهذا دليل ناهض على أن الزيادة خير ينبغى ألا نتبرم به .

إن أوربا تشكو اليوم من قلة النسل لا من كثرته ، وأن بعض الدول قد أوجدت قروض الزواج وإعانة العائلات ولإعفاء من الضرائب والإيثار فى الوظائف والقيام على تربية الأولاد وتعليمهم ورعاية الأمومة والطفولة ومعونة الشتاء وإصلاح حال العمال بالتأمينات الاجتماعية المختلفة وإقطاع الأراضى للعائلات الفقيرة وتعميم الهجرة فى الداخل والخارج ، وعلى الجملة قامت طائفة من الاصلاحات تشجيع كثرة النسل .

على أن كل أولئك لا يعنى أنى أعارض فكرة منع تناسل المصابين بأمراض وراثية والمجرمين ، بل أنى أذهب فى ذلك إلى حد التعقيم .

إن منشأ الفقر والمرض والجهل فى مصر ليس كثرة السكان وإنما عدم وجود سياسة اجتماعية ثابتة .

وإن الدعوة إلى تحديد النسل لهى دعوة إلى إعلان الافلاس الاجتماعى !

عبد المجيد نافع